دور اللغة في تنمية الطاقات البشرية وتجربة اللغات الأجنبية في البلدان الإفريقية (1)

إدريس الكتاني
الأستاذ بجامعة محمد الخامس (الرباط)

ان اللغة ليست اداة تفاهم واتصال فقط ، ولكنها أيضا اداة للتفكير والتأمل . والانسان يفكر باللغة التي يتكلمها ، ويعيش تحت تأثير قيمها الثقافية والعلمية والدينية ، وباختصاصه واستيعابه لرموز لغته الوطنية، وكناياتها ، واستعاراتها ، وايحاءاتها ، ودلالاتها الخاصة بالزمان والمكان ، يستطيع أن يدرك الحقائق العلمية ، والظواهر الاجتماعية ، ويتجاوب مع الناس والاحداث، وينمي طاقاته العقلية والبدنية والانتاجية ، وذلك ببذل نفس المجهود المعتاد في البلدان المتقدمة .

لكن عندما يفرض على شعب متخلف استعمال لغة اجنبية عنه ، لاسباب استعمارية او سياسية او طبقية او مذهبية ، هل تستطيع اللغة الاجنبية ان تؤدي وظيفة اللغة الوطنية ، وان تصبح اداة سهلة لتحقيق الاهداف الوطنية ، وخاصة ما يتعلق بمحاربة الامية ، وايقاظ الوعي الوطني ، ونشر الثقافة والقيم الاخلاقية ؟ وهل سيكون بوسعها ان تساعد على تعميم التعليم ، وتحقيق تطور اقتصادي واجتماعي لعموم المجتمع ؟ ..

ان الدور الهام الذي لعبته اللغات في تاريخ الحضارات والفكر البشري ليس بالشيء المجهول الذي يحتاج الى توضيح جديد هنا ، واذا كانت الدول الكبرى خلال التاريخ ، وفي العالم المعاصر ، تهتم بتطوير ونشر لغاتها الوطنية، فلتقديرها لهذا الدور ، وشعورها بأهميته البالغة في بنيانها الاجتماعي ، وعظمتها الدولية .

وتعتبر فرنسا من اشد الدول المعاصرة احساسا بهذا الدور ، ولذلك فهي تبذل في سبيل لغتها ما لا تبذله اية دولة اخرى .

منظمة اليونسكو تنصح الدول النامية باستعمال لغاتها الوطنية في التعليم

وفي تقرير اعدته لجنة من خبراء اليونسكو كلفت بدراسة مسالة الحفاظ على اللغات الوطنية للشعوب النامية ، وتطورها ، والتدابير التي يمكن اتخاذها للتعجيل باستعمالها في التعليم ، طبقا لرغبات هذه

---

(1) « نشر هذا البحث أولا باللغتين الفرنسية والانجليزية بمجلة « Cahiers Africains d'Administration Publique » التي يصدرها المركز الافريقي للتكوين والبحث الاداري للتنمية « CAFRAD » التابع للامم المتحدة بمدينة طنجة ، في عددها الخاص بتحضير المؤتمر الافريقي المنعقد بطنجة في 18 شتنبر 1972 لدراسة « مشاكل نمو الطاقات البشرية والتسيير في القطاع العام الافريقي » عدد 8 غشت 1972 . وقد تفضل السيد الاستاذ الكتاني باتحاف مجلتنا بهذا البحث القيم الذي نختصره للقراء .

الشعوب ، وعلى اساس التجارب المعروفة فى البلدان الاخرى ، اكدت لجنة اليونسكو هذه انه لا يوجد اي عائق فى نظام لغة ما يحول بينها وبين جعلها لغة حضارة حديثة ، وترى هذه اللجنة انه اذا كانت (اللغة الأم) كفيلة بأن تكون لغة للتعليم الجامعي والتقني ، فانه يجب استعمالها لهذا الغرض ، وطلبت اللجنة ايضا من هيئة اليونسكو ان « تدرس » امكانيات تنسيق المصطلحات العلمية والفنية للغات العلمية ، وذلك لمساعدة اللغات النامية على ان تكون لها مصطلحاتها الخاصة ، وان تتطابق فى ذلك ، بقدر الامكان ، مع مصطلحات اللغات العالمية .

البنك الدولي للبناء والتنمية ينصح باستعمال اللغة الوطنية فى التعليم

وهناك مؤسسة مالية دولية اخرى اتخذت موقفا من اللغات الاجنبية يتفق مع موقف اليونسكو ، ففي سنة 1963 طلبت الحكومة المغربية من البنك الدولي للبناء والتنمية القيام بدراسة عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب ، وفى التقرير الذي اعدته بعثة البنك ، بعد ان قضت فى المغرب شهرا فى الدراسة والبحث ، نصحت الحكومة المغربية ، ومن وجهة نظر اقتصادية بحت ، بأن تضع حدا لتعليم اللغة الفرنسية فى المدارس الابتدائية توفيرا لـ 30 ٪ من وقت التلاميذ والمعلمين ، وتوفيرا لنحو 7 ملايير من الفرنك التي تنفق بدون طائل فى هذا المجال ، وتخصيص هذا المبلغ الضخم فى طبع الكتب ، واعداد الادوات المدرسية ، وتكوين المعلمين ، الى آخر ما جاء فى التقرير من النصائح المتعلقة بتخطيط سياسة وطنية ملائمة لحاجاتنا ومصالحنا .

تجربة اللغة الاجنبية فى شرق وغرب افريقيا

كانت اللغة الانجليزية حتى سنة 1963 هي اللغة الرسمية لدول افريقيا الشرقية الثلاث : طنجانيقا وكينيا واوغندا ، كما هي الحال فى مستعمراتها الافريقية السابقة الاخرى ، ولكن هذا لا يعني اكثر من انها لغة نخبة تمثل نسبة ضئيلة من السكان ، لا يتجاوز مستواها بضعة اعوام فى التعليم .

واكبر مشكلة واجهتها هذه البلدان بعد استقلالها السياسي هي ان الاسلوب التربوي عندها من وضع النظام الاستعماري الذي عمل على ان يتناسب ويتطور مع مصلحته هو لا مصلحة البلد الافريقي الذي يعنيه الامر ، ونظرا لذلك فان الشخصية الوطنية لاغلب الدول الافريقية اصبحت هي نفسها من مخلفات الاستعمار ، فليس من المدهش اذن ان عددا قليلا جدا من هذه الدول هي التي استطاعت ان تتبنى لغة فصحى للتلقين (Langue véhiculaire) تكون فى نفس الوقت « وطنية » و « افريقية » .

ان الاساتذة لوو وكرانت ووليامس (Low, Grant et Williams) فضلا عما اكدوه من ان الاطفال الذين يدرسون بلغة تختلف عن لغة الامومة لا يتقدمون الا ببطء ، يعترفون بأن الانجليزية تعلم بطريقة سيئة جدا فى افريقيا ، واغلب المعلمين فى عدة نواح افريقية لم يتلقوا اي تكوين ، وخاصة فى افريقيا الغربية ، وحسب تقرير بانجو Banjo سنة 1962 ، كان يوجد فى نيجيريا الغربية 26 000 معلم من بين 40 000 لم يقع تكوينهم .

« وهذه الانتقادات تتوجه خاصة الى المدارس الابتدائية ، ومع ذلك فان التعليم الثانوي ايضا لا يقوم الا على اقلية من التلاميذ ، ويوشك الامر ، كما هو حاصل فى الهند ، ان تنفصل النخبة عن الشعب ، بسبب استعمال اللغة الانجليزية » .

وبعد استقلال الدول الافريقية استعملت بعض اللغات الافريقية المحلية فى نطاق معين ، فى المستوى الابتدائي ، ولكن الانجليزية والفرنسية لم تلبثا ان دخلتا فى سلك التعليم ، وغالبا فى السنة الاولى من الثانوي، واصبحتا لغات فصحى .

ويلاحظ ان طانجانيقا هي احدى البلدان الافريقية النادرة ـ باستثناء الدول العربية الافريقية ـ التي لها لغة وطنية ، هي اللغة السواحلية . وقبل استقلال هذه البلاد فى 2 دجنبر سنة 1961 ، عمل حزب الاتحاد الوطني الافريقي لطانجانيقا « Tanu » على تعليمها فى مدارس وطنية خاصة تابعة له ، كما عمل على تعليمها للكبار فى البلاد كلها ، ولم يتردد بعد استقلال البلاد فى استعمالها كلغة رسمية فى دوائر الحكومة والبرلمان والتعليم ، وشرع فى ترجمة النصوص التشريعية الى هذه اللغة ، وفى سنة 1965 اصبحت اللغة السواحلية اجبارية فى جميع المدارس الثانوية ، وفى سنة 1968 فقط نظم اول درس جامعي عن الادب السواحلي فى تنزانيا .

ولم تصل سنة 1970 حتى فرض على جميع التلاميذ ان يجتازوا امتحانا فى هذه اللغة فى مستوى البكالوريا . « مع العلم بأن تعليما متقدما باللغة الانجليزية لا يزال مفروضا فى السنة الاولى من التعليم الثانوي ، ويتمنى فى بعض الاوساط ان تصبح التربية الوطنية كلها بما فيها التعليم الجامعي باللغة السواحلية ، ومع ذلك فان اعداد المواد البيداغوجية قلما يتجاوز مستوى المدارس الابتدائية » .

وفى سنة 1970 ايضا اعتبرت اللغة السواحلية الوحيدة التي يمكن لمرشحي الاتحاد الوطني الافريقي استعمالها اثناء حملتهم الانتخابية ، وفعلا فقد صرح نائب رئيس الجمهورية رشيدي كاواوا قائلا : « اذا كان السكان لا يعرفون اللغة السواحلية فان جميع المرشحين يجب أن يكونوا مصحوبين بمترجم » ، وعندما أصدر كاواوا الأمر لجميع الادارات الرسمية ، والى لجان الاتحاد ، سواء على المستوى الاقليمي او فى المقاطعات ، باستعمال اللغة السواحلية كلغة تعبير ادارية قدم ، بصفة خاصة ، الملاحظات التالية : « ان اكبر جزء من الاوراق المستعملة لا تزال حتى الآن مطبوعة بالانجليزية مع اننا نعلم جيدا ان اغلبية الذين يعنيهم الامر لا يعرفون هذه اللغة ، انها اهانة موجهة الى الامة » .

وفضلا عن ذلك فقد قام الرئيس نيريرى بترجمة يوليوس قيصر (Jules César) لشكسبير الى اللغة السواحلية ، وهو الذي قال : « فى خلال ثماني سنوات لم التجىء لمترجم الا مرة واحدة » .

وقد اكتسبت اللغة السواحلية اهميتها من عدة عوامل ، فهي منتشرة فى جزء كبير من افريقيا الشرقية ، وخاصة فى الكونغو الشرقي وأوغندا الجنوبية وهي ايضا منتشرة فى كينيا ، فضلا عن انها أصبحت اللغة الرسمية فى تنزانيا ، وهي لغة تعبير عن جميع الاشياء والافكار ، وبفضلها استطاع موظفو الاتحاد الوطني الافريقي لطنجانيقا ان يتصلوا بالقاعدة الشعبية ، وان يقوموا بنشاطهم فى الاقاليم التي لا تكاد تعرف . يضاف الى ذلك ان اللغة السواحلية كانت دائما مقوما اساسيا للشخصية الوطنية لطنجانيقا ، واحدى خصائصها العميقة .

ومن المفيد أن نشير الى ان اللغة السواحلية ، حسب جميع القواعد ، بعيدة من ان تعتبر لغة «بدائية» ذلك أن ادبها الحي الشعري يرجع الى القرن السابع عشر ، ومن اجله وقع استعمال الكتابة العربية ، ولم يقتصر الامر على الكتابة ، فقد كانت تعرف ايضا من هذه اللغة ، واذا كان الرئيس نيريرى قد استطاع ترجمة « يوليوس قيصر » الى اللغة السواحلية فان هذه اللغة لا يمكن أن تكون صعبة للغاية ـ كما حاولت التايمس (Times) فى ملحقها الادبي سنة 1967 اظهار ذلك ـ مثلما يقال بالنسبة للغات افريقية اخرى. وهناك عقبات كبرى وضعت لحذف اللغة الانجليزية او الفرنسية لفائدة لغات محلية ، وحتى لو لم تكن هذه شائعة كاللغة السواحلية .

ونشير اخيرا الى ان وجود لغة وطنية افريقية واسعة الانتشار ، كاللغة السواحلية كان له تأثير كبير على القادة الافارقة الذين كانوا بصدد انشاء منظمة سياسية قوية .

وتلعب اللغة السواحلية فى أوغندا ـ التي استقلت سنة 1962 ، ويبلغ عدد سكانها 10 ملايين ـ دورا اقل اهمية من دورها فى تنزانيا ، فحتى سنة 1963 كان فى أوغندا عدد كبير من الاوغنديين يفهمون اللغة السواحلية فى مستوى قضاء حاجاتهم من السوق ، كما ان عددا أقل من ذلك يتكلم هذه اللغة بسهولة ، مع العلم بأنها تعلم فى المدارس الاوغندية خلال فترة التقارب بين البلدين ، وقبل أن يقع التخلي عنها فى سنوات 1930 . أما النقابات والاحزاب فكانت تستعمل الانجليزية فى اجتماعاتها ، وتترجم خطبها الى اللغة الاوغندية او السواحلية .

ويرجع ضعف اللغة السواحلية بأوغندا لكون الطرق التجارية بها لم تكن قد تطورت بالقدر الذي حدث فى طنجانيقا ، وهناك سبب آخر اكثر اهمية وهو وجود قبيلة كبيرة وقوية كانت تتمسك باستعمال لغتها .

وبالرغم عن القرار الذي صادق عليه مجلس الشعب الاوغندي سنة 1962 بتقوية استعمال السواحلية لفائدة الوحدة بين الشعبين الاوغندي والتانزاني ، فان المسؤولين الاوغنديين ظلوا مستمرين فى استعمال لهجات قبلية فى برامجهم الاذاعية ، ولم يقتصروا على السواحلية .

وكان يبدو أن النخبة الاوغندية قد اختلفت فيما يرجع لمسألة اللغات ، واتضح هذا بمناسبة حوار جرى سنة 1962 حيث انتصر عدد من الشخصيات السامية (ثلاثة منهم اصبحوا وزراء بعد ذلك) لفائدة اللغة السواحلية ، وعلل أحدهم وهو نكوبي موقفه بانه استحال عليه مدة عشرين عاما القاء خطب بالانجليزية امام الجماهير الشعبية ، بينما عارض سروانو الذي

اصبح فيما بعد الرئيس المساعد للمجلس ، ونديوب الذي اصبح نائب رئيس الدولة ، بصراحة فى استعمال السواحلية .

واخيرا ، فى سنة 1963 قرر الوزير الاول ميلتون اوبوت الاستعمال العال للغة السواحلية ، ولكن رئيس U.P.C. جوهن بابيها لم يكن متحمسا ، بينما اكد وكيل الدولة بأن الاوغنديين لن يقبلوا ابدا اللغة السواحلية .

فاذا انتقلنا الى كينيا ، وهي الدولة المجاورة لكل من اوغندا وطنجانيقا على ساحل المحيط الهندي، والتي نالت استقلالها سنة 1963 ، فسنجد انها تتوفر على سكان يتكلمون سواحلية « اهلية » فى الساحل ؛ كما كانت صورة مشوهة منها تستعمل منذ زمن طويل بين اصحاب الاعمال وعمالهم ، وهكذا قاومت اللغة السواحلية الجهود التي بذلها النظام الاستعماري لازالتها .

وقد اكد وزير الانباء الكيني السابق السيد اشيانك اونيكو سنة 1963 ، وهو من اكبر انصار السواحلية ، بأن حوالي نصف السكان يفهمون اللغة السواحلية .

ومن الجدير بالملاحظة ، كمثل على صعوبة اختيار لغة وطنية ، انه يوجد بكينيا 42 جماعة قبلية لعدد من السكان يبلغ احد عشر مليونا ، ولا يتجاوز عدد أكبر جماعة منها وهي كيكويو مليونا ونصف مليون ، ومن الوجهة القبلية تعتبر السواحلية الآخذة فى الانتشار بكينيا لغة « محايدة » ، لها حظوظ لتصبح لغة وطنية، ولكن الانجليزية حتى الآن لا تزال هي اللغة الرسمية والتربوية .

والارقام المنشورة فى الجدول التالي عن اللغات المستعملة فى صحف الدول الثلاث تؤكد أن السواحلية هي اللغة الوطنية لطنجانيقا ، وانها لغة مهمة فى كينيا، كما انها تستعمل الى حد ما فى أوغندا . وهذا التشابه اللغوي بين كينيا وطنجانيقا يوضح الفكرة التي اعلنها سنة 1963 عدد كبير من السياسيين ، والتي تؤكد ان الروابط بين الكينيين والطنجانيقيين أقوى منها بينهما وبين الاوغنديين .

نسبة الصحف المنشورة بمختلف اللغات سنة 1962

		السواحلية	الانجليزية	لغات محلية
طنجانيقا	صحف يومية	70	30	—
	صحف شهرية	72	26	2
كينيا	صحف يومية	36	64	—
	صحف شهرية	46	41	13
اوغندا	صحف يومية	—	49	51
	صحف شهرية	—	7	93

تجربة اللغة الاجنبية فى مدغشقر

واذا كانت مشكلة اللغة الاجنبية لا تبرز للعيان بحدة فى كثير من الدول الافريقية ، فلأنها غالبا ما تختفي خلف مشاكل التعليم التي تلتحم بها ، وهذه المشاكل نفسها كثيرا ما تندمج فى اطار المطالب الوطنية والسياسية العامة التي تتبناها المعارضة ، وتواجه بها الحكم القائم .

لقد حصلت مدغشقر ، البالغ عدد سكانها 6.750.000 ، على استقلالها سنة 1960 ، ومن الجدير بالملاحظة ان طلبة الجامعة وتلاميذ التعليم الثانوي الذين قاموا باضرابات ابريل ومايو 1972 التي شارك فيها السكان ، وهزت كيان الدولة ، وارغمت رئيس الجمهورية على تسليم سلطاته للجيش، هؤلاء الطلبة يمثلون الجيل الذي بدأ تعليمه فى المدرسة الملغاشية المتفرنسة فى عهد الاستقلال . وهذا

يعني ان هذا الجيل لم يندمج اجتماعيا ونفسيا وتربويا في هذه المدرسة الاجنبية ، ولم تتكامل شخصيته الوطنية بواسطة لغتها ومناهجها واطرها الاجنبية ، وعندما شعر بأنها لن تحقق اهدافه ومطامحه في التطور والتقدم ثار ضدها ، ووجد تجاوبا كاملا مع جميع المنظمات الملفاشية التي تطالب معه بتعليم وطني كشرط اساسي لاصلاح التعليم .

وفي وصف هذه الحالة عقب الاضرابات المذكورة يقول مراسل جريدة « لومند » الباريسية : « كانت مطالب الطلبة ذات اهمية ، ولكنها لا تخرج عن النطاق الطلابي ، ورغم ذلك فان الرئيس تير اانا قد وصل الى حد اغلاق الجامعة في شهر مارس 1971 بعدما طالبته الجمعيات بتعليم وطني ، وتخفيف برامج الدراسات والامتحانات ، وقد اصبحت المساعدات الثقافية الفرنسية بكاملها معرضة للنقد من طرف المنظمات التي تدين التبعية الثقافية .

وبعد ان استعرض المراسل المذكور العوامل السياسية الاخرى التي تدعو اغلبية الشبان لاستنكار نظام الحكم الذي يعتبرونه شديد الارتباط بالاستعمار السابق ، اشار الى ان هذا لم يبد في الشعارات التي حملها الطلبة المتظاهرون يوم 24 ابريل الماضي حيث اكتفوا بشعارات كهذه : « معاهدات التعاون معاهدات استعباد » الفرنسية لغة الاستعباد » .

وقد جاء في تصريح ادلى به لجريدة «لومند» ريموند وليام ربمننجرا عضو الحركة الجمهورية الملفاشية الحرة ، بعد ان تولى الجيش جميع السلطات ، حول مستقبل هذه الجمهورية ما يلي : « اما فيما يتعلق بمصير اللغة والثقافة الفرنسية فان للملفاشيين كامل الحق في الدفاع عن لغتهم الاصلية ، وعن التراث الروحي والثقافي لاجدادهم ، ولكن من الواجب عليهم ايضا بالنظر للحاضر والمستقبل ، ان لا يعزلوا عن الفكر العالمي ، وداخل هذا النطاق ، سوف لا نفرط في كل ما هو فرنسي » .

هذا هو الموقف الصريح والعلني من قضية اللغة الاجنبية في بلد افريقي نام ، كان لا بد ان تمر اثنتا عشرة سنة على استقلاله قبل ان يلاحظ شعبه انعكاسات هذه التجربة المرة على حياته الاقتصادية والاجتماعية والقومية ، ويعلن سخطه وثورته ضدها.

ومن الجدير بالذكر انه عندما يطالب الطلبة في مدغشقر ، او في اي بلد افريقي آخر بتعليم وطني ، فهذا اولا وبالذات ، أن التعليم القائم ليس وطنيا طالما انه لا يعتمد على اللغة الوطنية التي هي شرط اساسي في نظرهم ليصبح التعليم عاما ، وديمقراطيا ، وفي خدمة المصالح القومية العليا للشعب كله ، ويتخلص من التبعية والسيطرة والتوجيه الاجنبي ، ذلك التوجيه الذي يحصر هدفه في تكوين عدد محدود من الاطر التي تحتاج اليها ادارة الدولة فقط .

تجربة اللغة الاجنبية في الجزائر

وفي اطار النظام الاستعماري الذي عرفته الجزائر من 1830 الى 1962 ، والذي فقد معه الشعب الجزائري ارضه وسيادته وجميع ثرواته الوطنية ، جاءت اللغة الفرنسية الاجنبية لتحل محل اللغة الوطنية في الادارة والتعليم والحياة اليومية ، ولتسلب الشعب الجزائري ثقافته العربية الاسلامية، وشخصيته القومية ، حتى تسهل عملية ادماجه النهائي في الامبراطورية الفرنسية .

وفي سنة 1938 ، اي قبيل الحرب العالمية الثانية ، وبعد مرور أكثر من مائة عام على هذا النظام، كان يعتقد ان عملية الادماج هذه قد نجحت نهائيا ؛ عندما كتب زعيم وطني جزائري ، عضو في البرلمان الفرنسي يومئذ ، يتساءل بحسن نية : هل توجد حقا امة جزائرية ؟ .

وبعد اعلان حرب التحرير الجزائرية سنة 1954 من طرف الشعب الابي ، اكتشف هذا الزعيم فجاة ظهور هذه الامة التي كان يبحث عن لغتها وثقافتها وشخصيتها الوطنية دون جدوى ، فارتمى بين احضان الثورة ليصبح أول رئيس للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية .

وفي سنة 1962 كان أول عمل للجمهورية الجزائرية المستقلة هو استعادة سيادتها المطلقة والكاملة على الارض والثروات الوطنية الجزائرية ، اما العمل الثاني الذي شرعت فيه فور انتهائها من المرحلة الاولى فهو استعادة اللغة والثقافة الوطنية ولم تكن هذه القضية تحتل اية مناقشة ، رغم الصعوبات التي كانت تكتنف تطبيقها ، ذلك ان كل تطور ونمو للشخصية الجزائرية ، ، وكل تعليم ، وكل ثقافة وطنية ، يستحيل قيامها بغير اللغة العربية ، لغة المدرسة الحرة الاسلامية الجزائرية ، باعثة النهضة ، وشعلة الثورة ، ولغة تحرير الانسان الجزائري من العبودية والجهل والاستغلال .

لقد استفادت الجزائر منذ استقلالها سنة 1962 من تجربة المغرب السابقة في سياسة التعليم والتعريب منذ استقلاله سنة 1956 ، واستطاعت بفضل وضوح رؤيتها ، وبعد نظرها ، وعمق تجربتها ومحنتها في عهد الاحتلال ، ان تتجنب الاخطاء التي وقع فيها غيرها ، وان تقرر جعل اللغة العربية أداة علم وعمل في جميع قطاعات النشاط الوطني ، وادخالها الى الميادين العلمية والثقافية ، وخلق مدرسة جزائرية ذات صبغة قومية .

وقد تحدث الرئيس الجزائري هواري بومدين يوم 28 ابريل 1970 امام اللجنة الوطنية لاصلاح التعليم عن التعريب بوصفه اختيارا اساسيا لا رجوع فيه ، فاكد بانه مطلب وطني ، وهدف من الاهداف الكبرى بالنسبة للجماهير ، وقال : انه توجد بالجزائر نخبة وشعب وفي مثل هذه الحالة يجب على النخبة ان ترجع للشعب خاصة بالنسبة لهذا الموضوع ، لان الشعب هو الذي احتضن عبر القرون كل ما يمثل عنصرا اساسيا لما نسميه اليوم « بمقومات الشخصية الوطنية » .

وبهذا القرار التاريخي الحاسم ، فتحت الجزائر الباب على مصراعيه لتطبيق مبدأ تعميم التعليم ، ودمقراطيته ، ومحاربة الامية ، وتكوين الاطر الوطنية ، وخلق الوعي لدى الجماهير الشعبية باهمية التدابير المتخذة في سياسة التصنيع ، والتطور الاقتصادي ، والاجتماعي ، والاصلاح الزراعي .

تجربة اللغة الاجنبية في المغرب

ومنذ استقلال المغرب سنة 1956 حتى اليوم، لم يحدث ان اجمعت الاحزاب الوطنية ، والنقابات العمالية ، واتحادات الطلاب ، والنقابات العمالية ، واتحادات الطلاب ، والمؤسسات العلمية والثقافية والدينية على مبدأ وطني مثل اجماعها على ضرورة استعمال اللغة العربية في التعليم والادارة والحياة اليومية بدل اللغة الفرنسية التي فرضتها الحماية في عهدها السابق .

ففي 13 ابريل 1964 قامت وزارة التعليم بتجربة عندما نظمت مناظره وطنية كبرى حول التعليم دعت لها 400 شخص يمثلون جميع المؤسسات الحكومية والشعبية لوضع سياسة وطنية قارة للتعليم ، وكانت نقطة الصراع الوحيدة والمغطاة بمشاكل التعليم ، هي التي جاءت في هذه التوصية التي كانت محل اجماع اعضاء المناظرة ، وانتصر فيها ممثلو المؤسسات الوطنية الشعبية انتصارا ساحقا :

« لغة التعليم هي اللغة العربية في جميع المراحل الدراسية ، ويشرع في تعليم اللغات الاجنبية ابتداء من الطور الثانوي » .

وبعد مصادقة الجمع العام للمناظرة (400 ممثل) على هذه التوصية الصادرة عن « لجنة السياسة العامة للتعليم » تمكنت اللجان العشر الاخرى ـ بعد اسبوعين من العمل الجاد ليلا ونهارا ـ من اصدار توصياتها المتعلقة بالسياسة الوطنية العامة للتعليم .

وقد انعقدت مناظرة اخرى في افران للبحث عن اسباب الاضرابات ومحاولة ايجاد حل لها واصدر المثقفون المغاربة بيانا تاريخيا وقعه 500 من الشخصيات المغربية في طليعتهم كبار العلماء ، وقادة الاحزاب الوطنية ، ونقابات العمال ، واتحادات الطلاب والاساتذة والمثقفون .

ومما جاء في هذا البيان ان الشعب المغربي لا يريد بعد تحرره واستقلاله ان يظل مربوطا بعجلة اية دولة اجنبية ، ويظل فكره القومي محتكرا للغتها ، وانما يريد ان يستوعب الحضارة الانسانية العالمية بمختلف لغاتها الحية ، وعن طريق التبادل الثقافي والعملي والصناعي ، دون ان يتخلى قيد انملة عن لغته العربية ، كلغة رسمية حية ، في التعليم والادارة والعمل اليومي ، فان علماء المغرب ومثقفيه ، ورجال الفكر والاصلاح فيه ، يرون من واجبهم القومي والديني بمناسبة الحوار المفتوح حول سياسة التعليم ومستقبله في المغرب :

اولا ـ ان يجددوا نصحهم وتحذيرهم من اية سياسة لم تحقق غير المزيد من فرنسة الاجيال المغربية الناشئة ، وفرنسة لغة التخاطب العامية ، وترشيح فرنسة الادارة والمصالح العمومية والخصوصية بالمغرب المستقل ، مما يهدد وحدة وكيان ومستقبل الشعب المغربي ، ويعرقل تقدمه وازدهاره وامنه الفكري .

ثانيا ـ ان يذكروا بأن التعريب الكامل العام ، في التعليم والادارة والعمل والشارع هو مطلب قومي

اجمعت عليه الامة منذ الاستقلال ، وهو لا يتعارض بحال من الاحوال مع دراسة اللغات الاجنبية الحية كلغات ، ولا يتناقض مع رغبتنا جميعا فى التفتح على حضارة القرن العشرين ، وانما يؤكد فقط رغبة الشعب المغربي فى المحافظة على مقومات شخصيته الوطنية ، ومن المعلوم انه لا يمكن لهذه الشخصية ان تنمو وتزدهر الا فى اطار اللغة القومية ، ولا يمكن للتعليم ان يصبح شعبيا ودمقراطيا ومزدهرا الا باللغة القومية .

ثالثا ـ ان ينبهوا الى التجني الذي يرتكب فى حق اللغة العربية عندما يراد ربطها بالوضع الذي يوجد عليه العالم العربي اليوم ، وبالنقص الذي يلاحظ فى المصطلحات العلمية الحديثة ، مع انه لا ينكر احد ان اللغة العربية كانت هي اللغة العلمية العالمية الوحيدة فى العصور الاسلامية الزاهرة (القرون الوسطى فى اوربا) ، وان تخلفها اليوم فى ميدان المصطلحات الحديثة لا يرجع لعجزها هي ، بل لجمود المجتمعات العربية التي عليها أن تقوم بسد هذا النقص فى الميدان اللغوي ، فى نفس الوقت الذي تعمل فيه على سد نقصها فى الميادين العلمية والصناعية ، ذلك أن اللغة العربية ، ككل اللغات الحية ، لا يمكن أن تتطور وتتقدم بمعزل عن الحياة والعلم والمجتمع ، وابعادها عن ان تكون لغة التعليم والادارة والعمل ، هي الطريق المفضية بها الى الموت البطيء ، لا الى الحياة الخالدة .

اسباب المحافظة على اللغات الاجنبية بافريقيا :

1 ـ ان اغلب المسؤولين والمشرفين على سياسة التخطيط يجهلون هم انفسهم لغتهم الوطنية ، لانهم تعلموا باللغة الاجنبية التي لا يزال نفوذها مستمرا بالرغم عن استقلال بلدانهم ، وحيث انهم عاشوا فى هذا الوضع ، واندمجوا فيه اداريا فهم يخشون أي تغيير قد يمس مصالحهم بسوء .

2 ـ ان عودة اللغة الوطنية لاحتلال مركزها الطبيعي كلغة رسمية للدولة سيؤدي حسبما يزعمه هؤلاء الى خلل فى سير الادارة ، والى انخفاض المستوى فى التعليم والتكوين ، والى عزل الشعب عن تيارات حضارة القرن العشرين . والواقع ان الخلل الاداري ، وانخفاض المستوى ، هما بعض ما تعانيه هذه البلدان ، بالرغم عن استعمال اللغة الاجنبية ، لانها نتيجة لسلوك الرجل ومستوى معرفته ، وليسا نتيجة للغته ، أما دعوى عزل الشعب عن تيارات الحضارة العالمية ، فهي مجرد خداع وتضليل للرأي العام الوطني .

3 ـ ان السكان يتسابقون ، حسب زعم هؤلاء ايضا ، لتسجيل ابنائهم فى مدارس البعثات الاجنبية ، حرصا منهم على أن يتعلموا بلغتها ، والحقيقة هي أن طبقة من السكان المترفين اذا كانت تفر من مدارس الدولة الرسمية ـ وهذا لا يشرف اية حكومة بهذا الوضع ـ فليس ذلك لتعلقها أكثر باللغة الاجنبية ، ولكن لانها تخشى المصير التعس الذي ينتظر ابناء الشعب الذين يغادرون المدرسة دون أن يحصلوا حتى على شهادة الثانوية العامة .

4 ـ ان استعمال اللغة الاجنبية أصبح مرتبطا بالمصالح الاقتصادية والثقافية والسياسية للدولة صاحبة هذه اللغة ، وبمساعداتها المختلفة للدولة التي تستعمل لغتها ، ومن شأن التحول الى اللغة الوطنية ، حسبما يعتقده هؤلاء ، ان يسيء الى علاقات الدولتين ، والى مصالح المنتفعين فيهما ، وليس من شأن دولة غير ثورية أن تقوم على مثل هذه الخطوة الجريئة .

5 ـ ان استعمال اللغة الاجنبية قد يكون ـ فضلا عن الاسباب السابقة ـ لمجرد الحاجة ، لان الدولة المعنية لا تملك لغة علمية مكتوبة ، او بسبب الضغط الاستعماري المتواصل ، او فقط عبارة عن اختيار سياسي لتحقيق اهداف سياسة معينة ، قلما يقع الانتباه لها . أو لان النخبة الحاكمة لا تزال تشعر بالنقص تجاه المستعمر القديم وتجاه لغته ، فهي لا تجرؤ على المس بالمؤسسات التي خلفها ، وكثيرا ما تجتمع اغلب هذه العوامل فى البلد الواحد .

هذه ، على الاقل ، خلاصة الاسباب التي تجعل اغلبية الدول الافريقية تتبنى اللغات الاجنبية ، دون ادراك واع منها بأن هذا التبني يشكل عقبة كبرى فى طريق نمو شعوبها ، وتقدمها ، واستغلال طاقاتها البشرية .

الافارقة سيتخلصون عاجلا او آجلا من اللغات الاجنبية :

وهناك شعور متزايد لدى الراي العام ، ولدى المؤسسات الوطنية فى الاقطار الافريقية بأن الدول الغربية المستعمرة السابقة لها ، كانت تهتم بنشر

لغاتها فى هذه البلدان ، أكثر مما تهتم بتطورهـا أو نشر التعليم فيها ، وهذا الشعور تؤكده حتى اليوم الدراسات والمجلات التي تعني بهذا الموضوع .

ان تجارب الشعوب الافريقية مـع اللغـات الاجنبية اكدت بأن تبني هذه اللغة أو تلـك من طرف نخبة قليلة من شعب افريقي لا يعني حصول هـذا الشعب على تقدم أو تطور بفضلهـا ، فالشعـب الجزائري ، مثلا ، الذي استمرت عملية فرنسته خلال 132 سنة من الاستعمار ، كان قد وصل اقصى درجة من الفقر والجهل والانحطاط قبل قيام ثورته المعجزة سنة 1954 ، وتجربة الشعوب الافريقيـة بعـد الاستقلال ، سواء منها التي ورثت اللغة الانجليزية او الفرنسية ، جعلتها تزداد اقتناعا بأن استعمال هذه اللغات لن يحل مشاكلها ، بل ربما خلـق مشاكـل جديدة لم تكن فى الحساب ، ولذلك فان الشعـور الوطني العام يسير نحو التخلص من هذه اللغات التي اقترن تاريخها بالعبودية والاستغلال الاقتصادي .

ان هذا الاتجاه قد ادركه بذكاء المفتش العام للتعليم فى فرنسا طابو « R. Thabault » الـذي كان آخر مدير للتعليم فى المغرب عندمـا قال : « .. كيفما كان سبب تبني الافارقة للفرنسية ، سواء كان اختيارا ، أو مجاملة ، أو مصلحة ، أو ضرورة ، فان هذا لا ينبغي أن يحجب عنا حقيقة تكاد تكـون مجهولة فى فرنسا ، وهي انه مهما كانت الصعوبات وعدم الملاءمة مع المشروعات ، فان الافارقة لهـم رغبة جامحة فى أن تكون لهم لغة خاصة بهم ، لغـة افريقية مشتركة تعوض الفرنسية ، وفى الحقيقـة فان التحول الى الاستقلال قلل من حدة هذه المشكلة، بيد ان الجذور الاحساسية والعاطفية لهذه الرغبـة عميقة جدا ، وتوشك المشكلة ان توضع بقوة مـن جديد فى المستقبل » .

ونفس الفكـرة عبـر عنهـا بييـر بورنـي (Pierre Burney) بالنسبة لدول المغـرب العربي عندما قال : «كيفما كانت الاسباب التي حددت اختيار الفرنسية كلغة ثانية ، سواء التقاليـد ، أو السهولة ، أو المصلحة ، أو المجاملة ، فان تعريبـا تدريجيا للتعليم سيتم حتما » .

وقد لاحظ نفس الاتجاه فى افريقيا الجنوبيـة الاساتذة لووكرانت ووليامس السابق ذكرهم قائلين: « .. ومع ذلك فانه يلاحظ فى افريقيا الجنوبية انه يقع الالحاح بقوة على التعليم باللغة المحلية أكثر من الانجليزية ، وهذا يعني ان التربية البانتوية (لغـة البانتو) لا تعني فقط تلقين مواد ولكن أيضا وجـود لغـة معبـرة » .

وعندما انعقد الملتقى الجامعي الاول حـول الوحدة الافريقية بالجزائر فى نهاية مارس 1971 ، اكد ما سجله الجميع على البيئة التربوية القائمة فى القارة الافريقية المستقلة ، التي تتميـز بظاهـرة الاستلاب الثقافي ، أو التبعية الثقافية . وهـذه التبعية جعلت أغلب المثقفين الافارقة لا يقـدرون ثقافتهم الوطنية ، ولا يشعرون بالدور الذي يمكن ان تلعبه هذه الثقافة ، وانعزالهم عن شعورهم لم يكـن نتيجة لأفكارهم الجديدة فقط ، بل لانهم أيضا أصبحوا يتحدثون بلغة تختلف عن لغة شعوبهم » .

هذا الموقف الافريقي من اللغات الاجنبية الذي ادركه بوعي وتجربة خبراء اجانب فى شؤون التعليم واللغات بافريقيا كالاستاذين طابو وبورني فى سنـة 1962 ، جاءت اضرابات الطلبة والتلاميذ لتؤكده بقوة فى شعاراتها ضد التبعية الثقافية وسيطرة اللغـة الفرنسية،بينما غاب هذا الادراك عن بعض السياسيين والمسؤولين الافارقة أنفسهم .

خـلاصـة :

ان تعلم اللغات الاجنبية وخاصة الانجليزيـة والفرنسية بالنسبة للطبقة الاجتماعية المتعلقة بالقارة الافريقية ، هو مطمح كل متعلم دون جدال ، ووسيلة ضرورية لاغناء الثقافات الوطنية ، وتكوين الاطـر العلمية والتقنية الوطنية فى سائر المجالات ، وتيسير التبادل العلمي والثقافي مع شعوب العالم المتقدم ، هذه هي الحقيقة الاولى التي لا يجادل فيها أحد .

ولكن اسلوب التعليم الذي فرضه الاستعمـار الغربي على شعوب القارة ، كان يهدف بالدرجة الاولى الى نشر لغة الدولة المحتلة ، وفرضها كلغة رسمية فى الادارة والتعليم ، وقد تبين لهذه الشعوب ، بعد التجربة المرة ، انه اسلوب خطير ، وان أقل اخطاره القضاء على الشخصية الوطنية ، وعلى الثقافة والقيم التاريخية والدينية ، وعرقلة كل تقدم وازدهار حقيقي للشعب ، واخضاعه باستمرار لتبعية الدولة التـي يفكر ويتكلم بلغتها ، وهذه هي الحقيقة الثانية التي بدأت هذه الشعوب تدركها .

ومن خلال التجارب الافريقية اتسعت المعرفة، وازداد اليقين بحقيقة علمية ، وهي أن الاطفال الذين يدرسون بلغة أجنبية ، تختلف عن لغة الاموم ـ وخاصة أصحاب الذكاء العادي وهم الاغلبية الساحقة ـ لا يتقدمون فى دراساتهم الا ببطء ويشتد هذا البطء اذا فرض عليهم التعلم باللغة الاجنبية ، وباللغة الفصحى الام للغة الاموم ، او بلغتين أجنبيتين عن لغة الاموم وهذه هي الحقيقة الثالثة .

وقد برهنت الحركات التقدمية او الثورية التي تغلغلت فى القارة الافريقية على ان دوافعها الاساسية لا تخرج عن النطاق الوطني الذي يستهدف النمو وتقدم الانسان الافريقي ، وتحريره من كل انواع العبودية واعتناق بعض الحركات للشيوعية نفسه ليس اجتهادا فكريا متأثرا بالدعاية الاجنبية ، بقدر ما هو عبارة عن رد فعل اجتماعي قوي للتحالف مع اية قوة خارجية ضد الحكم الذي لا يخدم مصالح الشعب ، وما دام هذا الحكم يؤثر عليها مصالح المستعمر السابق ، ويدعم لغته وثقافته على حساب اللغة والثقافة الوطنية ، فان التيار العام ، وخاصة لدى الطبقة المتعلمة ـ سيزداد اتساعا وعنفا ضد هذه السياسة وضد أصحابها ، وسيعمل على التخلص من هذه اللغات فى التعليم والادارة عاجلا او آجلا ، وهذه هي الحقيقة الرابعة التي نستخلصها فى النهاية من هذا العرض .

ألقاب الصوفية فى المشرق :

الاولى : المجلس العالي يكتب بها لشيخ الشيوخ بالديار المصرية وهي المجلس العالي الشيخي الكبيري العالي العاملي السالكي الخ ..

المرتبة الثانية : المجلس الساميتي (بالياء)

المرتبة الثالثة : المجلس السامري (بغير ياء)

المرتبة الرابعة : مجلس الشيخ (صبح الاعشى ج 11 ص 85)